

# نظم التربية في الإسلام

لحضرة الاستاذ حامد عبد القادر

استاذ التربية بدار العلوم

بعث الرسول عليه الصلاة والسلام لينقى القلوب من أدران الشرك ، ويملاها بنور الإيمان ، ويقتلع من النفوس جذور الرذيلة ويثبت فيها أصول الفضيلة ، ويحث من العمول المبادئ الفاسدة ، ويفرس مكانها الافكار العاصلة . ومعنى ذلك بلغة التربية الحديثة : أنه بعث لتحقيق أغراض ثلاثة هامة هي :

( ١ ) ترويم الوجدان . ( ٢ ) تربية الإدراك . ( ٣ ) تهذيب السلوك .

وإن الله تعالى ليذكر هذه الأغراض واضحة جلية في القرآن الكريم فقال تعالى "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ". وقال "كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ". بيد أن الغرض الأسمى من التربية الإسلامية هو تقويم الأخلاق وتهذيب السلوك ، ومصداق ذلك قوله تعالى "يُؤْمِرُهُمُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ". وقول الرسول صلى الله عليه وسلم "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ولاعجب فإن تقويم الأخلاق أسمى غايات التربية وأنبيل مقاصدها .

على أن الإسلام لم يهمل تربية الإدراك ، بل إنه رفع من شأن العلم والعلماء . قال تعالى "يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ" وقال صلى الله عليه وسلم "العلماء ورثة الأنبياء" وقد حث الباري على طلب العلم بقوله : "قُلُوبًا تَقَرِّمُ كُلَّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ" وقوله "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في الموضوع نفسه "من طلب طريقا يطلب فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة".

والإسلام كما يوجب على الجاهل أن يتعلم يوجب على المتعلم أن يعلم ، قال تعالى "وَلْيُذَكِّرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ" وقال "وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ" وقال مقررًا من يكتمون العلم "وَإِنْ قَرَيْتُمْ مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ“ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : ”لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من الدنيا وما فيها“ ، وقال ”من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بإجم من نار“ وقال ”إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له“ .

وليست عناية الإسلام بالتربية الوجدانية بأقل من عنايته بتقويم السلوك وتربية الإدراك ، لأن قوة الوجدان وطهارته دافع قوى إلى العمل الصالح والسلوك المستحسن ، قال تعالى ”هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم“ والتركية تشمل تطهير القلوب من أمراضها والنفوس من عليها .

وقد حمل الإسلام حملة شعواء على أمراض القلب وشذوذ الوجدان من الحسد والكبر والنفاق والرياء والغضب وسوء النية : ”وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ“ ، ”لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ“ ”إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ“ . ومن حديث الرسول ”لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا“ .

ويهى الإسلام أشد النهى عن الاستسلام للانفعالات الضارة بالعقل والجسم الموروثة للعداوة والبغضاء بين الناس وخاصة الغضب . ولا يقتصر الإسلام على ذلك بل يأمر بأن تحمل معها الانفعالات والعواطف الطيبة المؤدية إلى التحاب والتواصل كحبة الناس والعفو عنهم والعطف عليهم . بل إنه ليذهب أبعد من ذلك فيأمر بالرفق بالحيوان ، ويشدد التنكير على من يقسو عليه ، وأخيراً يجعل حسن النية مقياس الأعمال الحسنة ، قال تعالى ”فَمَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ“ وقال : ”محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم“ وقال ”أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن“ ، ”وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ“ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ”لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه“ و”إن الله يحب الرفق فى الأمر كله“ و”إن الله تعالى كتب الاحسان على كل شيء“ و”فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة“ ، وليعد أحدكم شفرته ولبح ذبيحته“ ”دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض“ ”ما من مسلم يفرس غرساً أو يزرع زرعاً فى كل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة“ .

أيها الاخوان :

يقول " إمانول كانت " فيلسوف الأخلاق الألماني : إن حسن النية هو الكل في الكل في الأخلاق ، فيهلل له المحدثون من علماء الأخلاق ويظربون بقوله ، وما دروا أن محمد بن عبد الله ابن الصحراء وربيب السماء قد قال من قبل " كانت " بنحو أنف ومائة سنة : " إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى " بل إن هذا الرسول ليقرر ما هو أوضح من ذلك وأشد تأثيراً في النفس إذ يقول : " إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم " .  
ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم مثلاً أعلى للربى الكامل ، كان مخلصاً في عمله ، صبوراً على المكارة ، حليماً في غير ضعف ، شديداً في غير عنف ، قوى العارضة ، حاضر البديهة ، واضح الحجّة ، قوى الدليل ، يسأل فيحسن السؤال ، ويسأل فيحسن الإجابة ، ويفاطب الناس على قدر عقولهم ، أو ينزل إلى مستوى تلاميذه كما يقول علماء التربية .  
وكان لا يأمر بشيء إلا ويسبق الناس إلى اتباعه ، ولا ينهى عن أمر إلا ويسارع إلى اجتنابه ، فكان بذلك مثالا حيا لتعاليمه ، ونموذجا محسنا لأدابه . ولم يكن عليه السلام يكثر من وعظ أصحابه وإرشادهم في جلسة واحدة خشية أن يملوا ، فمن ابن مسعود أنه قال " كان صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السامة علينا " . وقد غابته الطبيعة البشرية مرة فعبس في وجه صحابي قيل هو ابن أم مكتوم فقال تعانى : " عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدِيرُكَ لَعَلَهُ يَرْكَبُ أَوْ يَذُكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى " وأخلاق به علم يتعمده الله أن يكون قدوة حسنة لتعلمين ، و بهرب رعاها الرب أن يكون مثلاً أعلى للربين ، وصدق الله حيث يقول " لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ " .  
وحيث يقول : " لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ " .

وقد سلك القرآن في بيان العقائد والأحكام مسلكاً مناسباً لمستوى العرب العقلي ، فكان ما فيه من أمثلة ومقدمات مشتقة من بيئة العرب وتجاربهم ومشاهداتهم ، فليس فيه التواء ولا تعسف ولا إسفاف ولا تكلف ، ولم يأت بما هو غريب عن البيئة العربية ولا بعيد عن مشاهدات العرب وتجاربهم العادية ، وإنك لتراه متمشياً مع المنطق الفطرى المقنع المؤثر ، فثارة يأتي بالأمثلة والشواهد المحسنة وينقل منها انتقالاً منسجماً إلى الأمور المعنوية ، ويضرب الأمثال بالأمور الحسية للحقائق المعنوية ليقربها إلى الأذهان ؛ وثارة أخرى يأتي بالمتقيدة أو الحكم ويتبعه مباشرة بالاستدلال عليه بالمشاهدات والتجارب اليومية . والطريقة الأولى هي المعروفة لدى علماء التربية بالطريقة الاستقرائية ، والثانية هي الموسومة بالطريقة القياسية .

من ذلك ترون أيها السادة أنه لا يعلنا العقيدة الإسلامية فقط ، ولا يشرح لنا الأحكام الدينية بحسب ، ولكنه مع هذا وذلك يعلمنا بطريق غير مباشر كيف نعلم المتعلمين فنزل إلى مستواهم العقلي ، ونستلهم على تفهيمهم الأمور المعنوية بالأمثلة الحسية والشواهد تأتي بها من تجاربهم ومشاهداتهم ، ولعمري إن هذا الأساس من أهم أسس التربية التي تنبئ إليها من مربي العرب الغزالي وابن خلدون ، ومن مربي الفرنجة بستانورتزي وفروبل ومن نحنا نحوهما من مربي القرن العشرين .

سيداتى سادتى :

أختتم كتابتى بالتحدث عن موضوع لا يقل في أهميته عن الموضوعات السابقة ، ذلك هو حظ المرأة من التربية في الإسلام .

قد عرض كثير من زملائي أسابقيين لبحث هذا الموضوع من نواح شتى فأجادوا وأفادوا وكانوا في بحوثهم جدّ مهققين ، غير أن ذلك لا يمنع من أن أضم صوتى إلى أصواتهم فأقول : إن التربية الإسلامية في العصر الإسلامي الأول لم تكن لتفترق بين الرجل والمرأة ، فقد أوجب الإسلام عليهما بما طلب العلم بعض الحديث المشهور ، وهو قوله عليه الصلاة والسلام " طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " وقد كان النساء يحضرن مجالس الرسول ويستمعن إلى مواظله وتعاليمه ، يدل على ذلك ما نقل عن أبى سعيد الخدرى أنه قال " قال انشاء للنبي صلى الله عليه وسلم طُبتنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك ، فوعدهم يوماً يعظهن فيه فوعظهن " وعن أبى عباس أنه قال " أشهد على النبي صلى الله عليه وسلم أنه خرج ومعه بلال فظن أنه لم يسمع النساء فوعظهن وأمرهن بأصدقة . ولم يحدث الرسول على تعليم الأحرار من ثنساء المسلمات فقط ، بل إنه رغب أشد رغبة في تعميم الإمامة أيضاً حيث قل : ثلاثة لم أجرائهم رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه ، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم اعتقها وتزوجها فله أجران " . فانظروا رعاكم الله كيف يحدث الرسول عن تأديب الأمة أحسن تأديب وتربيتها أحسن تربية ثم عنقها ثم التزوج منها : انه لشعور يفيض إنسانية ونبلًا ، وإنما للطمة قوية في وجهه من يدعى جهلاً وتطاولا أن الإسلام يقف في وجه المرأة ويحيط من قدرها ويحول بينها وبين التربية والتعليم . إن التاريخ يشهد على أن المسلمات أقبلن على طلب العلم وأن منهن من كانت لها منزلة عالية راقية ومركز اجتماعي عظيم ، فقد كانت حائسة أم المؤمنين تحسن القراءة والكتابة . وكانت من أكثر الناس رواية عن الرسول ، وكان لها شأن يذكر في مجرى التاريخ الإسلامي ، وقد قل الرسول في حقها خذوا نصف دينكم عن هذه الجهراء .

وكانت أم سلمة وحفصة بنت عمر زوج النبي وأم كلثوم بنت عقبة وعائشة بنت سعد  
وكريمة بنت المقداد تحسن الكتابة، وكان من بنات العرب أديبات حافظات للقرآن راويات  
للشعر عالمات بمختلف العلوم مطلعات على شتى المعارف والفنون . كما كان منهن معلمات  
فضليات تخرج عليهن أساتذة العلوم وفحول الفصاحة والبيان، فقد ذكر ابن خلكان أن السيدة  
سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنها كانت أديبة فاضلة ، وأنها كانت  
تحضر مجامع الشعراء فتنتقد شعرهم ولها معهم ومع غيرهم من الأدباء نواذر وحكايات طريفة .  
وذكر المؤرخ نفسه أن الإمام الشافعي رضى الله عنه لما حضر إلى مصر ذهب إلى السيدة  
نفيسة بنت الحسن بن زيد وسمع عليها الحديث .

ولو أن التاريخ أنصف انتعلات المسلمات ونقل إلينا تاريخهن بشيء من التفصيل  
لعلمنا من أخبارهن أكثر مما نعرف الآن، ولاستطعنا أن نبين بصورة أوضح مقدار حفظهن  
من الثقافة الإسلامية .

ومهما يكن من شيء فإس هالك أدنى شك في أن الإسلام قد هيا للمسلمات فرصا  
للتربية اراقية من انتهزها منهن بلغت بها أعلى المراتب التي قدر لرجال بلوغها ، وليست الأمية  
التي كانت ذمية بين النساء وشهدنا آثارها بمصر في الجليل الماضي بدليل على محاربة الإسلام  
للنساء وتربيتهم كما يتوهم قصيرو النظر والمتحاملون على الإسلام والمسلمين ، وإنما كانت  
مظهرها من مظاهر الجهل المطبق في عصور الدول المتابعة الذي عمت آثاره الرجال والنساء .  
فإذا نهض النساء في عصرنا الحاضر ، فأقبلن على العلم وقصدن دوره ، ووردن مناهله ، فإنهن  
لم يأتين بدعاً وإنما أحيين سنة صالحة سنها النبي صلى الله عليه وسلم وأخذ بها الخلفاء والأمراء  
من بعده .

بيد أنى أرى من الواجب الحتمى ألا نذهب في تربية البنات مذهب من يسوونها بالابن ،  
إذ من الضروري أن نسلك في تربيتها مسلكاً طبيعياً ، ونسير في تنشئتها سيراً ملائماً لتكوينها  
الفطرى، وهذا هو ما يتفق مع أساليب الإسلام، وما نصح به المحدثون من المربين ، وخاصة  
العلامة هورن الأمريكى في كتابه المنع "المثلية في التربية" . والله تعالى نسأل أن يوفقنا إلى  
اتباع مناهج الإسلام ما

حامد عبد القادر